الأستاذ/ عبد السلام صحراوي.

المقياس: الأدب العربي والاستشراق.

السنة الثالثة ليسانس – تطبيق رقم 01

التخصص: دراسات أدبية.

الفوج الأول.(01)

التعريف بالاستشراق وعنايته بالتراث العربي الإسلامي.

مفاهيم: الاستشراق – والاستعْراب – والاستغْراب.

01– مفهوم الاستشراق:

لقد أصبح الاستشراق اليوم علمًا له مجاله وكيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفتُه، ودراساته ومؤلفاته وأغراضُه وأتباعُه. ولذلك، لا بد من محاولة تحديد ماهية الاستشراق وموضوعه وعلاقته بالاستعراب . وما أهمية الاستشراق والاستعراب في التقريب والتوفيق بين الشرق والغرب ؟ وما حقيقة مهمّته؟ وما هي أسباب اهتمام المستشرقين بهذا الفرع من المعرفة؟

يبدو واضحًا للوهلة الأولى أنَّ المفهوم اللغوي يأتي من كلمة " الاستشراق " وهي كلمة مشتقة من مادة " شَرَقَ " فيقالُ " شَرَقَتْ الشمسُ شرقًا وشروقًا إذا طلعتْ ". وتجدُرُ الإشارة إلى أنَّ الكلمة التي نبحثُ عنها لم ترد في المعاجم العربية ، وهذا لا يمنعنا من البحث عن معناها استنادًا على قواعد الصرف وعلم الاشتقاق .ويبدو أنَّ معنى (استشرَقَ) أدخل نفسَهُ في أهلِ الشرق وصار منهم. وقد حدّدتْ بعض المصادر اللغوية الحديثة المفهوم العلمي لكلمة (استشرَقَ) : طلبَ علوم الشرق ولغاتهم . ويُقالُ هذا لمن يَعنَى بذلك من علماء الفرنجة. "والمستشرق هو عالِمٌ متمكِّنٌ من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه " كما ورد في Grand Larousse encyclopédique.

وأول استعمال لكلمة (مستشرق) كان سنة 1630 م حيث أُطلقَ على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية. ثُمَّ تتابعتْ الاستعمالات بعد ذلك . وأمّا قاموس " أكسفورد الجديد" فقد حدّد (المستشرِق)

orientalist بأنَّه " من تبحّر في لغات الشرق وآدابه" ، وذلك هو التفسير الذي نعتمد . ولا بد لنا أنْ نفكّر دائمًا في المعنى الذي أُطلقَ عليه لفظ استشراق المشتق من كلمة (شرق) وكلمة شرق تعني مشرق الشمس ؛ وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي ... وكانت كلمة ومصطلح " الشرق " تُطلقُ على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط ، كما لا يخفى علينا أنَّ كلمة (الشرق) قد تعرّضتْ إلى اتساع كبير في نطاق مدلولها في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية ؛ فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية ليس فقط ناحية الشمال والشرق ، بل أيضًا ناحية الغرب كذلك. وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال أفريقيا . وتعرّب السكان تدريجيًا (الأقباط في مصر ، و البربر في غربها) ومنذ ذلك الوقت تعتبر مصر وشمال أفريقيا ضمن الشرق . وامتد الاستشراقُ إلى شمال غرب أفريقيا الذي يسمّى بالمغرب ، أيْ بلد غروب الشمس.

يقول أحمد حسن الزيات في كتابه (تاريخ الأدب العربي): " يرادُ بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأُممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ...إلخ "

ويقول أحمد الإسكندري وأحمد أمين : (المفصّل في تاريخ الأدب العربي). المؤلف أحمد الإسكندري والآخرون.يقولان في تعريفهما للمستشرق ، إنَّه " كلُّ من تجرّد من أهلِ الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية ، وتقصَّى آدابها طلبًا لتعرُّف شأنَ أمةٍ أو أممٍ شرقية من حيث أخلاقُها وعاداتُها وتاريخُها وديانتُها أو علومها وآدابها، أو غير ذلك من مقوّمات الأمم ، والأصلُ في كلمة (استشرق) أنّه صار شرقيًا ، كما يُقالُ (استعرب) إذا صار عربيًا ".

ويقول أحمد الشرباصي: " المستشرقون قومٌ من أوروبا ، نَسبُوا أنفسهم إلى العلم والبحث وشغلوها في أغلب الأحيان بالبحث في التاريخ والدين والاجتماع ، ولكلّ منهم لغتُه الأصلية التي رضعَ لبنَها من أمِّه وأبيهِ ومجتمعه وبيئتِه ، فصارتْ له " اللغة الأم " كما يعبّرون فهو يغارُ عليها ويتأثَّر بها ، ويستجيبُ لموحياتها ، ولكنّه مع ذلك تعلّم اللغة العربية بجوار لغته الأصلية ليدرس حضارة الشرق وعلومه وآدابه."(أحمد الشرباصي: التصوف عند المستشرقين ص:06.).

ويصفُ إبراهيم عبد المجيد اللبّان أصحاب الاستشراق في كتابه:(المستشرقون والإسلام) فيقول:
"المستشرقون اسمٌ واسعٌ يشملُ طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم وأمم الشرق."

ويشير محمد عبد الغني حسن إلى الاستشراق قائلًا: " الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر ذلك في تطوّر البناء الحضاري للعالم كلّه."

أمّا مالك بن نبي فيرى أنّنا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ويقول إنَّ علينا أنْ نصنِّف أسماءهم في شبه ما يسمى " طبقات " على صنفين:

أ- من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل: قرير دورييّاكْ ، والقديس توما الأكويني . وطبقة المحدثين مثل: "كارادوفو"و" جولد ميهرْ" .

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوّهين لسُمعتها.(مالك بن نبي: (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث).

ويذهبُ يوسف أسعد داغر في تحديده لمصطلح الاستشراق إلى القول: " الاستشراق على إطلاقه وشموله ، حركة علمية عُنيتْ ولا تزال تعْنى بدراسة المدنيات الشرقية ، ما غبَرَ منها وما حَضَر ، وما طُمِسَ ذكرُهُ منها وما استقرَّ، وبما خلَّفتهُ تلك الحضارات من قوى روحية وآثار فكرية وأدبية وفنّية ودينية ، وبما يتَّصلُ بهذه الحضارات القديمة ، وبما فيها من شعوبٍ وأجناسٍ ومذاهب ومدارس ، وما إلى ذلك كلّه من أثَرٍ ظاهرٍ ناطِقٍ شاهدٍ على الحياة البشرية الحضرية وهو خليقٌ بأنْ تُحييه نشرًا وطباعةً ." (مصادر الدراسة الأدبية).

وأخيرًا نشير إلى ما يقرّره إسحاق موسى الحسيني في كتابه (الاستشراق: نشأتُه وتطوّره وأهدافه) من أنَّ لفظة " استشرقَ " ومشتقّاتها مولّدة استعملها المحدثون من ترجمة كلمة orientalism ثمّ استعملوا من الاسم فعلًا، فقالوا استشرقَ: وليس في اللغات الأجنبية فعلٌ مرادفٌ للفعل العربي، والمدقّقون يُؤْثرون استعمال " عُلماء المشرقيّات " بدلًا من مستشرقين ... ولكنّ لفظة " استشرق ولفظة مستشْرقٌ قد شاعتا شيوعًا كبيرًا.."

... إنَّ الموجات الاستشراقية كان هدف بعضها — على الأقل — الهجوم على العقل العربي ، وعلى القومية العربية ، واللغة العربية والعقيدة الإسلامية والتراث ... وإنَّ كثيرين من أدبائنا جروا وراء المزاعم الباطلة التي ردّدها المستشرقون، فاتهموا العقلية العربية بالجمود والتخلف والقصور في الإبداع الخلّاق أمثال توفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، وسلامة موسى ، وإسماعيل مظهر ، وأمثال الشاعر أبي القاسم الشابي الذي كتب عن الأدب العربي أنّه أدب جامد ميّتٌ لا سمو فيه، وأمثال الشاعر والمنظّر والناقد أدونيس الذي قال عن العرب ، إنهم مقلدون غير مبدعين ، وإنّهم لم يقدّموا شيئًا يذكر للإنسانية ، وإنّ التاريخ لا يحفظ لهم تحوّلًا إبداعيًا واحدًا أحدثوه في أيِّ مرحلة ...

وبالمثل رأينا طه حسين يتأثّر بمنهج " مارجوليوت" وبمناهج المدرسة النقدية الفرنسية في حكمه على الشعر الجاهلي ويثير الشكوك حول أصالة الشعر الجاهلي ..

وفي المقابل ، لم تكن آثار الاستشراق كلّها سلبية ، فقد كان هؤلاء الأجانب أصحاب فضل في لكشف عن التراث وفي الصون والتقويم والفهرسة والتصنيف والدراسة والنقد والترجمة والتأليف والتحقيق العلمي الدقيق ، وفي إنشاء دوائر المعارف ، وفي جمع المخطوطات من كلّ مكان ..

2– مفهوم الاستِعْراب:

إنَّ كلمة " الاستعراب و " المستعْرِب " ، أصلُها اللغوي " عَرَبَ " عربًا : بمعنى فَصَحَ بعد لكْنَه .(عرب) عُروبًا وعروبةً وعرُوبيةً ، فَصَحَ ، ويُقالُ عَرَبَ لسانُهُ (وأَعْرَبَ) فلانٌ ، كان فَصيحًا في العربية وإنْ لم يَكُنْ من العرب. و (تعَرَّبَ) تشَبَّهَ بالعرب ، وتعرَّبَ أَقَامَ بالبادية وصار أعرابيا .. واستعرَبَ صار دخيلًا في العرب وجعلَ نفسَهُ منْهم .. (كما ورد في المعاجم العربية).

وكذلك " عرَّبَتْهُ العربُ ، وأعْرَبَتْهُ أيضًا وأعرَبَ الأَعْجَمُ ، وعَرَبَ لسانُهُ بالضّم عرُوبَةً ، أيْ صارَ عربيًا ، وتعرّبَ ، واستَعْرَبَ أفصَحَ... (ابن منظور : لسان العرب).

ولقد كان استعمال كلمتيْ " الاستعراب والمستعْرِب " ذائِعًا في القرون الوسطى خاصة في الأندلس .. بحيث أُطلقَ لفظ " المسْتعربين " هناك على جماعةٍ من المسيحيين كانوا يعيشون في ظلال الحكم الإسلامي ، وقد

كانت لهم فنونهم وآدابهم ، ولعبوا دورًا خطيرًا في إشعال الثورات ضد الحكم العربي هناك، حتى أنَّهم حاولوا أنْ يُسيئوا إلى مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، غير أنّهم سرعان ما تأكَّدوا من التسامح الإسلامي وتأثَرُا بالمسلمين ، فتمسّكوا باللغة العربية وآدابها ، وقد " كان يدفعهم إلى هذه الثورات والحركات رهبانٌ متعصّبون مثل (يُولوجْيُو وَالفارُو) ثُمَّ انتهى الأمر بأَنْ أعلنتْ الكنيسة نفسها استياءها من مثل هذه الحركات ، ولم يأْتِ القرن العاشر حتى كان المستعربون على تمام الوفاق مع المسلمين وابتدءوا يتأثرون تأثرًا قويًا بالثقافة الإسلامية وتحدثوا العربية."

وقد أخذ علماء التاريخ لفظ الاستعْراب وأطلقوه على فترة وصل فيها التأثير العربي الإسلامي ذروته في أوروبا... " و:كانت الفترة من 1100م إلى 1500م من الميلاد تقريبًا وهي الفترة التي شهدتْ حضارة جديدة في غربيْ أوروبا ، تمتاز بالتأثير الإسلامي في مختلف ميادين المعرفة وتعرفُ هذه الفترة في التاريخ بعصر الاستِعْراب الأوروبي،أيْ العصر الذي تعرّبَتْ فيه أوروبا ، وكانت علوم العرب ومعارفهم هي المصدر الأوّل لكلّ كتابٍ في أوروبا." (جلال مظهر : الحضارة الإسلامية . ص: 09 .)

وأمَّا المفهوم العلمي للاستعراب الذي نقصدُه هنا ، فهو علم يختصُّ بدراسة حياة العرب وتاريخهم وما يتعلّق بهم من حضارة وآداب ولغة وتاريخ وفلسفات وأديان... والمستعربُ هو عالمٌ ثقة في كلّ ما يتصلُ بالعرب وبلاد العرب أو باللغة العربية والأدب العربي ، أو بالأحرى " المسْتَعْرِبُ " هو من تبحَّر من غير العرب في اللغة العربية وآدابها وتَثَقَّفَ بثقافتها وَعَنَى بدراستها ..

ويتَّضحُ من خلال ما سبق أنَّ الاستعْراب فرعٌ من فروع الاستشراق ... فالاستشراق علمٌ عام يختصُّ بدراسة الشرق وآدابه ، والاستعْراب علمٌ خاص يختصُّ بدراسة العرب وما يتّصلُ بهم من حضارة وآداب ومبلغ تأثيرهم في غيرهم وتأثرهم بسواهم..

3- مفهوم الاستغْراب:

لقد وقفنا على مفهوم الاستشراق وعلاقته بالاستعْراب واهتمامه البالغ بالشرق وبكلّ ما يتعلّق به ..
والجدير بنا أنْ نتساءل ، هل لدى الشرقيين والعرب خصوصا علمٌ شبيهٌ به ، يدرسون فيه كلّ ما في الغرب من

حضارة وآداب وفلسفة وأديان ونظم وفنون ، لهم فيها منهجهم وفلسفتهم...؟ وبكلمة أخرى ، هل لدى الشرقيين علم الاستغْراب كما لدى الغربيين علم الاستشراق ؟ هل استغرب الشرقيون كما استشرق الغربيون وكانت لهم أهدافهم ومقاصدهم..؟

لقد اهتم العرب اهتماما بالغًا في العصر الحديث بحضارة الغرب وآدابه، فأرسلوا البعثات إلى معاهده ومراكزه العلمية. كما قاموا بترجمة كثير من الكتب والدراسات ونشرها ونقدها . ومع ذلك ، من الصعوبة بمكان القول بوجود علم للاسغراب له منهجه ومدارسه وأهدافه.. وكلّ المحاولات والجهود التي قام بها بعض المفكرين والأدباء العرب بقيت تجربة وتجارب فردية لم تتبلور في حركة استغْراب واعية بوجودها وأهدافها ومنهجها وفلسفتها. ويمكن الإشارة هنا إلى رفاعة الطهطاوي في كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حيث وصف كلَّ ما صادفه في رحلته من الإسكندرية إلى مرسيليا وما لاحظه خلال حياته في فرنسا ما بين 1826 و 1831م ، كما أشار إلى علاقته بالمستشرقين على اختلاف اتجاهاتهم واهتماماتهم بالتراث العربي الإسلامي ودراستهم إيّاه.. و كذلك محمد عبده في كتابه: " الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " وقد قام فيه بدراسة النصرانية والإسلام دراسة مقارنة وما قدّم كلٌّ منهما للإنسانية. إضافة إلى الأمير شكيب أرسلان " في كتابه: " لماذا تأخَّر المسلمون"، حيث حاول أنْ يُجيب مقدِّمًا الأسباب التي أدّتْ إلى تأخّر المسلمين وتقدم غيرهم في العصور الحديثة ولماذا تقدّم المسلمون وتأخّر غيرهم في العصور القديمة ؟؟

وإلى ما سبق، نضيف عبّاس محمود العقاد في كتابه: " أثر العرب في الحضارة الأوروبية "، وقد تناول فيه عدّة موضوعات رئيسية يبيّن فيها أثر العرب في النهضة الأوروبية الحديثة. كما يبيّن أثر أوروبا الحديثة في النهضة العربية المعاصرة.

وإلى جانب هؤلاء ، نجد المفكّر الجزائري " مالك بن نبي " في كتابه : " الصراع الفكري في البلاد المستَعمَرَة " 1969م حيث تناول اتجاهات الغرب المختلفة للسيطرة على العالم العربي الإسلامي ومقدراته الاقتصادية والفكرية .إلّا أنَّ هذه التجارب وغيرها ظلّتْ معزولة ومنعزلة ولم تُبلور اتجاهًا واضحًا أو حركة متكاملة أو علمًا له منهجُهُ وأهدافه وغاياته مثلما كان للاستشراق..